الجزء الأول

اكتشاف الإسلام

هذه قصة عن كيفية اعتناقنا للإسلام.

هذه القصص ليست سوى أجزاء يسيرة من تاريخنا الشخصي.

جزء منا يريد إبقاءها كذلك، إبقاءها خاصة، لحمايتها.

لكن جزءاً آخر منا، الجزء الأقوى، يريد مشاركة تاريخنا معكم، واصطحابكم في هذه الرحلة أيضاً.

لإظهار أن الإسلام يخاطب قلوب الناس من خلفيات شديدة التنوّع، بطرق شديدة التنوّع.

لإظهار كيف يُغني الإسلام حياة ملايين الناس، كل يوم، بكل طريقة.

للاشتراك في حزن وسعادة لترك ما تعرفونه إلى ما يمكنكم تخيّله فقط.

لإظهار أننا قد اخترنا أن نكون ـ وفخورات بأن نكون ـ نساء مسلمات.

لإظهار أننا نبذل كل ما في جهدنا للتمسك بإسلامنا بكل قوانا، وأننا سوف نتمسك به، حتى عندما يحرقنا مثل جمرات ساخنة.

لإظهار أننا منكم، وأن جذورنا تنبت من المكان نفسه الذي تنبت منه جذوركم.

إنها فقط فاكهتنا وأزهارنا التي تختلف؛ لأننا نتغذى من مصدر مختلف.

1

دربـي

ولدت في ليدز شمال إنكلترا، حيث كان والدي ووالدتي قد اشتريا منزلاً صـغيراً ضمن صف من البيوت يقع على طريق ضـيق قبالة صف آخر من المنازل الشبيهة به تماماً. وبعد ثلاث سنوات، انتقلت عائلتنا إلى أثيوبيا ثم إلى زيمبابوي عندما كنت في السادسـة من العمر. في ذلك الوقت، أصـبح لي شقيق وشقيقة صـغيرة ممتلئة الجسم، أحببتها كثيراً. عشنا في منزل جميـل في إحدى ضـواحي هراري التي تنخفض فيها «الكثافة السـكانية»، مع حوض سـباحة وفدانين من الأزهار، وحديقة خضراوات وأشجار موز. خلال الثماني عشـرة سـنة الأولى من حياتي، عشـت مثل أي شابة أخرى أعرفها من الطبقة الوسطى في زيمبابوي.

التحقت بمدرسـة بنـات في هراري، وكنت أرتدي سـترة موحدة وأعتمر قبعة من القماش، وترأسـت البنات عندما أصـبحت في الصـف السادس. بـذل والدي ووالدتي جهدهما لتعلمينا جذورنا الأسـكتلندية، تلك التي تعود إلى قبيلـة الزولو، وثقافتنـا الجنوب إفريقية، وأن نقـدّر ما نحن عليه ومن أين جئنا. لم يرسلانا أبداً إلى مدارس خاصة استعمارية الأسلوب، وتعلمنا الرقصات الزيمبابوية التقليدية، وغالباً ما كنا نشدو بأغانٍ مناهضة للتمييز العنصري في أثناء سـيرنا إلى المدرسة. وبالفعل، كنا ناشطين سياسياً منذ عمر مبكر، وعندما أصـبحنا أكبر سـناً، غالباً ما كانت الرغبة بالتوافق مع الأنداد ومحاكاة ما نراه على التلفاز تطغى على أفضل نوايا أهلنا.

استمتعت بدراستي كثيراً وفزت دورياً بجوائز أكاديمية، فنية، وفي مجالي الخطابة والمسرح في نهاية كل سنة. كنت فتاة منطلقة وواثقة من نفسي، مفعمة بالحياة والأفكار، نشيطة، وأقوم بتطوير مشاريع جديدة دائماً. على أي حال، إلى جانب شخصيتي المدرسية المتميزة، كنت فتاة حفلات أيضاً، كما كانت حال جميع أصدقائي آنذاك. عشنا جميعاً حياة مزدوجة إذا صح القول، وتفوق الكثيرون منا في المدرسة برغم ظهورنا المستمر في حفلات هراري. لم تكن مثُلنا العليا مؤلفين كباراً أو مفكّرين يدعون للمساواة بين الجنسين، برغم حصولنا فعلاً على اشتراك في مجلة كوزموبوليتان Cosmopolitan الداعية إلى المساواة! ولم يكن مثلنا الأعلى كذلك بطلات كفاح التحرير الزيمبابوي المدعوات شيمورينغا Chimurenga. كانت مثلنا العليا الممثلات والمغنيات الأمريكيات وضمنهن فرق الفتيات ت-إل-سي TLC وسالت-إن-بيبا Salt-N-Pepa.

وجاء «توجيهنا الأخلاقي» من آر-و-ب R'n'B، موسيقى الراغا و«فرق» الراب ـ لم يكن بالتوجيه المهم كما سيخبركم أي شخص استمع مرة إلى تو لايف كرو 2 Live Crew، سنوب دوغي دوغ Snoop Doggy Dogg أو شابا رانكس Shabba Ranks! في الواقع، العادات الجنسية والأعراف الاجتماعية لغالبية شباب هراري «الباردين» كانت مستوردة بالكامل من الشواطئ الغربية كنا مثل الشباب في الكثير من الأماكن، مرتاحي البال ولا شيء يؤرقنا. أرتعش دائماً عندما أفكر في عدد المرات التي اقتربنا فيها من الخطر؛ نظراً لأسلوب حياتنا وافتقارنا إلى الحذر. كنا مهملين فيما يخص الشراب والقيادة، مخمورين، البقاء مع غرباء، الخروج وحدنا ليلاً دون نقود، تحت رحمة شباب حمقى مثلنا، الإصابة بفيروس الزهري، فيروس

إتشس-آي-في (المسبب لمرض الإيدز)، الحمل المبكر، الإجهاض؛ سمّ ما شئت، فقد كنا قريبين من كل ذلك. على أي حال، مرّت سنوات مراهقتي بسلام دون أن أصاب بأذى، وفي جعبتي علامات جيدة في الامتحانات! لم يكن كل أصدقائي محظوظين بذلك القدر.

بخلاف غالبية الزيمبابويين، نشأت في أسرة غير متدينة. كانت والدتي، وهي امرأة بارعة الجمال من الزولو، قد ولدت ونشأت نصرانية، لكنها عاشت حياة مدنية صاخبة في جوهانسبرغ، وعملت ممرضة فيما كانت تحصد جوائز الجمال وبطولات الرقص. خالفت والدتي التقاليد (وقوانين التمييز العنصري)، ووقعت في حب والدي، الجنوب إفريقي الأبيض. برغم تلقين والدي أنه صاحب امتياز ومتفوق على ما سواه في مدارس خاصة بالبيض، إلا أنه رفض المعيار العنصري لنظام الفصل واحتضن الكفاح المناهض له في المسرح الثابت الجذور. في حال كان هناك «إفريقي أبيض»، سيكون هو! كان والدي ماركسياً ملتزماً وسفسطائياً (شخص يقول: إنه لا يمكن معرفة شيء عن الله) في ذلك. لهذا، عندما كنا أطفالاً، قيل لنا: إن الإنجيل مليء بحكايات الجان، وقد صدّقنا ذلك. على أي حال، كنت أشدو التراتيل وأتلو صلوات للرب مثل كل الأطفال الآخرين، برغم أنها لم تكن تعني شيئاً لي.

في سنتي الأخيرة في المدرسة الثانوية، قررت التقدم بطلب للحصول على مقعد جامعي في لندن. كنت مصممة على الخروج من زيمبابوي. لم أكن أريد الوقوع في مصيدة التفكير بأن حياة المدينة في هراري هي كل شيء وأن نادي سيركس (السيرك) الليلي هو أفضل مكان على وجه الكوكب. لهذا تقدمت بطلب وتم قبولي في إحدى كليات جامعة لندن.

كل ما كان علي فعله هو الحصـول على المال اللازم لإيصـالي إلى هناك! بعد نحو ثمانية شـهور من العمل في صـناعة السفر والغناء في فرق محلية ناجحة، ادخرت ما يكفي من المال لشراء التذكرة وقضاء الشهور الأولى في لندن. وهكذا، غادرت هراري لدراسة الفرنسية، علم السياسة والاقتصاد في لندن. هناك، التقيت المجموعة الأولى من صـديقاتي المقرّبات، وبدأت اكتشـاف المعنى الحقيقي للصـداقة بين النسـاء. قرأنا معـاً، عملنا معاً، أكلنـا معاً واحتفلنـا معاً. استكشـفنا فرانتز فانون، أليس وكر وديكارت. أحنينا رؤوسـنا احتراماً لطاقم عمل بوف دادي، ماكسـويل وإيريكا بادو. تركنا شعرنا «ينمو بشكل طبيعي»، دون مواد كيميائية، وعقصناه وجدلناه ولففناه بأسـلوب إفريقي. تكلمنا حول قضـايا سـوداء (أضـحت وجهات نظرنا حولها أكثر حدّة)، حول حالة العالم، حول عائلاتنا وماضينا. كانت دائرتي الاجتماعية مكوّنة من مجموعة من الشابات السوداوات الجميلات الواثقات من أنفسـهن، اللواتي يتابعن تعليمهن، ويسـتمتعن بالحياة، على قمة العالم، أو هذا ما كنت أعتقده.

خلال صيف سنتي الأولى في الجامعة، قمت برحلة غيّرت حياتي إلى الأبد. بدأ كل شيء مع دعوة بريئة للمشاركة في مهرجان موسيقي في مصر لتمثيل زيمبابوي، إلى جانب أحد أصـدقائي الموسـيقيين الـذي كان مغنياً محترفاً وعـازف مبيرا (أداة موسـيقية زيمبابويـة). برغم أنني لم أكن موسـيقية محترفة، إلا أنني كنت أستطيع الغناء والضرب على الطبل الإفريقي نغوما، إضافة إلى إجادة العديد من الرقصات الزيمبابوية التقليدية.

كانت مصـر حارة وتضـج بالضوضاء، وتنشـط فيها الحركة في ظلال من الرمال وضـوء الشـمس. بالطبع، زرنا الأهرامات، والمتاحف والأسواق

كما يفعل كل السياح. لكني أتذكر أيضاً اهتمامي الشديد بالنساء اللواتي يضعن غطاء الرأس، الحجاب، أينما ذهبنا، وبكل صراحة، شعرت بالخوف. ثارت كل غرائز المساواة الناشئة داخلي ضد فكرة قيام المرأة بتغطية نفسها، اعتقدت أنه رمز لاضطهاد المرأة، وهيمنة الرجل. لكن على الأغلب، كنت أعتقد أنه يجعلهن يبدون قبيحات. عادةً، عندما نشاهد أشياء غريبة عنا، نستند في آرائنا إلى تجاربنا ومعرفتنا. نادراً ما نتغاضى في الواقع عن ملاحظاتنا ونحاول فهم ما نراه من خلال عيون أولئك الذين يعيشونه. لسبب ما، تجرأت في تلك الرحلة على طرح أسئلة حول ما كان يبدو مبهماً بالنسبة لي.

في إحدى الأمسيات، كنا نقيم حفلة موسيقية في قرية خارج المدينة. بعد أن انتهينا، أتذكر أنني شاهدت شابة، زوجة المنظّم، وكانت ترتدي غطاء رأس ـ حجاب ـ بلون الكريم. كان يؤطر وجهها ثم يلتف في طيّات فوق عنقها وصدرها. نظرت إلى وجهها، كانت جميلة. بدا لي أن وجهها يشع ألقاً، ونوعاً ما وبطريقة ما، كان الحجاب يبرز ذلك. كنت مأخوذة للغاية بذلك المنظر، لدرجة أنني توقفت للحديث إليها. بعد تبادل الدعابات، طرحت عليها سؤالاً كان يشغل ذهني منذ وصلت إلى القاهرة: «لماذا تغطين نفسك؟ إنكِ جميلة للغاية». حتى يومنا هذا، ترن إجابتها الواضحة والبسيطة في ذاكرتي.

قالت: «لأنني أريد أن يحكم الناس علي بما أقوله وأفعله، وليس بما أبدو عليه».

بووم!

منـذ وعيت على هذه الدنيا وأنا أهتم بمظهري، ليس لأنني جميلة على وجه الخصوص (برغم أن أصدقائي وعائلتي سيشهدون على غروري)، لكن بسبب رد فعل الناس تجاهي. خلال سنوات مراهقتي، كنت أنا وصديقاتي مرتاحات تماماً للفكرة القائلة: إن مظهرنا الخارجي ميزة لنا، ونستطيع السيطرة على الرجال بهذه الطريقة. في ذلك العالم، تعرف كل امرأة الخدعة: عندما تذهبين إلى مقابلة عمل، تأكدي أن يكون مظهرك على أحسن ما يرام، وإذا كان من تقابلينه رجلاً، فربما ينبغي عليكِ أن تكشفي ساقكِ قليلاً، تضحكين على دعاباته، تمدّين شفتيك قليلاً؛ ليدعوك إلى الغداء، على ذلك النوع من الأشياء تنشأ معظم النساء وهن يعرفن تلك الخدع ويستعملنها بوعي أو عن غير إدراك.

في تلك الليلة في القرية المصرية، عندما قالت لي المرأة الفاتنة: إنها غير مهتمة بأن يحكم الآخرون على مظهرها، وإنما على ما تقوله وتفكّر فيه، كان علي التوقف قليلاً وتسجيل ملاحظة! ما الذي كانت تعنيه؟ هل تريد إزالة المظاهر الجسدية من المعادلة؟ لم أشعر سوى بالإعجاب تجاه تلك المرأة. أخذت أفكّر في الإسلام الذي يجعل المرأة قوية جداً لدرجة أنها لا تبذل كل ما بوسعها للفت انتباه الرجال، ولا تحتاج إلى نظرات الإعجاب تلك لتشعر بأنها جذابة، ولا تعرض نفسها لمجرد أن باقي العالم يفعل ذلك؟ أثّرت هذه الأسئلة بي بعمق. بدأت التفكير في حياتي، في الصورة التي أكوّنها عن نفسي وكيف أريد أن أكبر وأتطور. سألت نفسي: ما إذا كنت أتحلى بالشجاعة، الثقة، والتقدير الذاتي للمضي قدماً بشخصيتي وتفكيري فقط.

هذا ما كان، وبدأت في تلك الرحلة المصيرية إلى مصر في صيف 1998 التفكير حول الإسلام، ودارت عجلة التغيير. وبدا أن الحديث مع تلك المرأة الجميلة التي أثارت إعجابي بقوة شخصيتها قد فتح عينيّ. فجأة، بدأت أشاهد التقوى في كل مكان حولي، في المساجد، في الشوارع، وفي كل مكان. في ذلك الوقت، بدأت أهتم بكلمات التقوى، التي تُلفظ بالعربية: «بسم الله»، «الحمد لله»، «إن شاء الله»، «ما شاء الله». شعرت في الوقت نفسه بالدهشة والفضول؛ لأنني أدركت فجأة أن لدي جانباً روحياً لم يسبق لي استكشافه من قبل. شعرت بالقلق؛ لأنني لم أكن أعرف الكثير عن أحد أعظم أديان العالم. كنت ممتلئة بالنصرانية، ولم تحرك كل دروس الثقافة الدينية التي حضرتها في المدرسة مشاعري، وعلقت ذكرى قراءة الإنجيل، وصور المستعمرين حاملي البنادق في ذهني بشكل لا يمكن طمسه.

كان شبه مستحيل بالنسبة لي فصل النصرانية عن كل عواملها الثقافية وعن الإمبريالية التي نقلتها إلى إفريقية. نتج عن ترعرعنا في زيمبابوي، إحدى دول المواجهة التي تحد جنوب إفريقية التمييز العنصري، موزامبيق التي تعصف بها النزاعات، أنغولا وناميبيا، معرفتنا العميقة بالطريقة التي يتم بها استعمال النصرانية ستارة لحجب الأنظار عن سرقة أرضنا بشكل كامل. برغم أن ذلك لم يمنع (وما زال لا يمنع) غالبية الجنوب إفريقيين من التشبث بإيمانهم، إلا أنه كان يزعجني. ازداد هذا القلق باعتناقي لفكرة السود والأفارقة في الجامعة، التحول إلى النصرانية يماثل التخلي عن كل شيء. لكن الإسلام كان جديداً تماماً بالنسبة لي، ولا أعرف شيئاً أبداً عن تاريخه. بدأت أطرح أسئلة حول الإيمان: ما يؤمن به المسلمون، ما يفعلونه وما يمتنعون عنه. عقدت العزم على قراءة القرآن

لدى عودتي إلى لندن. والإنجيل أيضاً، شعرت أنني أريد منح النصرانية فرصة أخرى.

تركت مصر مصدومة: لقائي بالإيمان الإسلامي أثّر بي حتى النخاع. لم أستطع وضع إصبعي على ما أثارني إلى ذلك الحد، لكن مهما كان السبب فقد تحول إلى تساؤل عن كل تلك الافتراضات والتوقعات القائمة منذ أمدٍ طويل حول طموحاتي المستقبلية. ما هو هدف حياتي؟ هل سأتخرج في الجامعة وأحصل على عمل مرموق، وأعمل من التاسعة حتى التاسعة؟ هل سأنفق مالي على الملابس والأثاث المنزلي، وأزور زيمبابوي كل سنة؟ هل سأعود في النهاية إلى هناك، أتزوج من «رجل محلي» وأعيش في ضاحية راقية مع خادمة، طاهٍ وبستاني، بعيداً عن عامة الشعب ـ بوفو؟ هل سأنتظر حتى أبلغ الثلاثين من العمر لأنجب أطفالاً، وأتأكد من التحاقهم بأفضل المدارس الخاصة الاستعمارية الأسلوب وأصطحبهم في رحلات ما وراء البحار كل سنة؟ في الجوهر، هل سأعيش الحياة التي اخترتها خلال سنوات مراهقتي، الحياة التي كان يصبو إليها كل الزيمبابويين الشباب في دائرتي الاجتماعية؟ بشكل ما، كل ما رأيته وسمعته في مصر أيقظ شيئاً ما في داخلي، توقاً إلى استشراف الوجهة، إلى العمق والجوهر، اشتياقاً إلى شيء أكثر من مجرد وجود مبتذل كنت أخطط له. للمرة الأولى، بدأت أتساءل حول العالم وموقعي فيه: بدأت أتساءل حول معنى الحياة؟

لدى عودتي إلى لندن، كنت مقتنعة آنذاك بأنني أريد منح موضوع «اللباس المحتشم» فرصة. لهذا غطيت رأسي، كما كانت تفعل المغنية إيريكا بادو في تلك السنة، وارتديت ملابس فضفاضة، قمصان مغلقة عند الصدر وسراويل واسعة ذات ألوان هادئة. إضافة إلى ذلك، كنت أتأكد

دائماً من ارتداء معطف عندما أرتدي سروالاً ضيقاً. لم يمر تحولي من مغنية ملهى إلى «أخت إفريقية» مرور الكرام في الحرم الجامعي. كانت إحدى الشائعات التي وصلتني أنني قد انضممت إلى فرقة دينية وأن علي وضع غطاء الرأس طيلة الوقت. على أي حال، لم تزعجني تلك الشائعات لأن غرائزي كانت توحي إلي بأنني أقوم بالعمل الصحيح، بغض النظر عن الاستنتاجات المتطرفة التي قد يقفز إليها بعضهم.

اشتريت نسخة من القرآن مترجمة من قبل مارمادوك بيكتهول، المؤلف الإنكليزي الذي اعتنق الإسلام في بداية القرن العشرين. لخوفي الشديد، لم أستطع استيعاب معانيه العظيمة. بغض النظر عن دروس الثقافة الدينية في المدرسة، إلا أنني نشأت خارج تقاليد الكتاب المقدس ولم أكن أشعر بأنني على صلة جيدة بقصص الأنبياء وشعوب الماضي. وبما أنني لم أكن أستطيع قراءة العربية في ذلك الوقت، فقد كان عليّ تدبر أموري مع النسخة الإنكليزية التي سيخبركم أي شخص بأنها مجرد ترجمة سيئة. لم يشرح لي أحد مصادرها، لم أكن أعرف كيف خرجت إلى الوجود بشكلها الحالي، وما إذا كانت الوحي الأصلي نفسه أو أن شخصاً ما، مثل النبي محمد ﷺ أو أصحابه، قد كتبوها بأنفسهم. كنت أعتقد أنه يشبه الإنجيل كثيراً، وأنه لذلك يحتوي على بعض القصص نفسها التي وضعها رجال مختلفون عبر مر السنين. في الحقيقة، لم تكن ردة فعلي الأوّلية موقرة وكانت نسختي الأولى مليئة بالخطوط تحت الكلمات، علامات الاستفهام والتعجب. كانت هناك بعض المفاهيم التي لم أستطع استيعابها في ذلك الوقت، والتي بدأت أفهمها فقط عندما عرفت المزيد عن القرآن.

لكن كان هناك جوانب من الشريعة القرآنية فهمتها بسهولة. استطعت رؤية الجمال والحكمة في إقامة الصلاة خمس مرات يومياً. كان ذلك يعني أن أول عمل يقوم به المرء في اليوم هو العبادة، صلاة الفجر، كما أن آخر عمل هو صلاة العشاء. ما بين هاتين الصلاتين، تأتي الصلوات الثلاث الأخريات؛ صلاة الظهر وقت الغداء تقريباً، صلاة العصر في منتصف المدة بعد الظهر، وصلاة المغرب التي تقام عندما تصبغ الشمس الغيوم باللون الأحمر الداكن عند المغيب. تعد هذه الصلوات الخمس تذكيراً مستمراً بالرب، وفرصة لتجديد علاقة المرء بالمولى عزّ وجل.

كانت هناك قوانين أخرى بدت معقولة بالنسبة لي أيضاً. برغم أنني كنت معروفة مع صديقاتي بانغماسنا في شرب الخمر بين الفينة والأخرى، إلا أنه لم تكن لدي مشكلة في قبول تحريم الكحول والمُسكرات الأخرى. هناك حقيقة معروفة تماماً بأن رجال زيمبابوي يحبون جعتهم، وقد شاهدت خلال طفولتي ومراهقتي بأم عيني آثار إدمان الكحول، تبذير النقود، والعنف، والاختلاط غير الشرعي والعواقب المدمرة التي ترافق الشرب بشكل مفرط في التجمعات الإفريقية. لكن أي شخص في أي مكان في العالم عاقر تلك الجعة البغيضة حتى خرجت رائحتها من أنفاسه، لا بد أن يكون قد شعر بآثار الإسراف في الشراب، واختبر التقيؤ الذي يثير الغثيان، وشاهد الألم المثير للشجن الناتج عن الحاجة للكحول أو عانى من عواقب ثمالة «بعض المرح»؛ وسيفهم، قليلاً على الأقل، الطريقة التي يحط بها الكحول من كرامة البشر. على الرغم من أن هذه السيناريوهات لا ترافق كل المغامرين (المُبتلين) باحتساء الكحول، إلا أن إمكانية الوصول إلى ذلك كانت كافية لإقناعي بحكمة الابتعاد عنها تماماً.

علـى أي حال، تطلب الأمر مفاجأة بشـعة؛ حتى أتوقف عن تناول لحم الخنزير. كنت قد اشـتريت مع زميلتي في السـكن بعضاً منه، ووضعناه في الثلاجة. ما أثار اشـمئزازنا الشـديد أننـا عندما أخرجنـاه من الثلاجة لنطهوه في اليوم اللاحق، كانت قطعة اللحم الشاحبة اللون مليئة بالديدان. كان ذلك كافياً بالنسبة لي، حتى أقسم على عدم تناول لحم الخنزير طيلة حياتي. لغاية يومنا هذا، حتى الكلمة نفسها تجعلني أشعر بالغثيان.

بالنسـبة لي، توصـية الرجـال والنسـاء بالتواضـع ومعاملة بعضـهم باحترام كانت تعني وضع حد لاهتمام الرجال غير المرغوب فيه، صيحات الاستهجان، صـفير التحرش، الغمز واللمز والتحرش الجنسي. كان يعني أيضاً وضع حد للسـعي وراء الحصول على موافقة الذكور على مظهري أو ملابسـي. كان ذلك يعني تغيير نوعية ملابسـي وكيفية تفاعلي مع الرجال والمحافظـة على مسـافة معينة بينهم وبيني. كانـت تلك طريقة جديدة في الحياة، وطريقة جديدة في النظر إلى العالم. كان ذلك يعني أنني صاحبة القول الفصل: أشاطر من نفسي قدر ما أراه مناسباً، لا أكثر ـ ليس هناك رجل لديه حق عليّ. ماذا عساي أقول؟ كان ذلك يمنحني السلطة.

لهـذا، ببطء لكن بثبـات، كانت حياتـي تتغير. على أي حـال، لم أكن مقتنعـة بأننـي أحتاج لاعتناق الإسـلام فعـلاً حتى أعيش علـى الطريقة الإسـلامية. كنت أعتقد أنني سأسـتمر فقط في تغيير بعض الأشـياء هنا وهناك والحفاظ في الوقت نفسه على أسلوب حياتي وأهدافي الشخصية. وكنـت مـا أزال أدين بالـولاء لـ«إخوتي» و«أخواتي» السـود أكثر مما أدين به للمسـلمين الذين التقيـت بهم. بالفعل، برغم أننـي كنت منجذبة نحو الإسـلام، إلا أن المسـلمين كانوا ما يزالون غامضـين بالنسـبة لي. كانت

جامعتي تقع في مايل-إند، على الطريق بين وايتشابل وبريك-لين الذائعة (السيئة) الصيت الآن، ويقطن تلك المنطقة كثافة سكانية كبيرة من الآسيويين، معظمهم مسلمون. كانوا في كل مكان حولنا هناك ـ في المنازل المنفصلة والمتصلة، ومحال بيع الدجاج ورقائق البطاطا والمساجد. غالباً ما كنت أرى الرجال، المتجهمين، ذوي اللحى الشائبة والبيضاء، يمشون عاقدي العزم نحو منزل صغير قرب الحرم الجامعي يستعملونه مسجداً ـ مسجداً، كما علمت لاحقاً، لا مكان فيه للنساء لتأدية الصلاة. برغم أن النساء يتمتعن بخيار الصلاة إما في البيت أو المسجد، إلا أن بعض المساجد التقليدية لم تكن تفسح المجال للنساء باعتماد أحد الخيارين بأنفسهن.

كان معظم المسلمين هناك بنغالاً وكنت أرى النساء أيضاً، اللواتي يرتدين فساتين (ساري) تلوح من تحت عباءاتهن السوداء، ويضعن أوشحة غير ثابتة على رؤوسهن، وشفاههن وأسنانهن مصبوغة بلون برتقالي داكن نتيجة تناولهن جوز نخل التنبول (فوفل) الذي يحبين مضغه. ثم كان هناك الفتيات الصغيرات المشرقات الوجه، بأوشحتهن المزركشة وملابسهن النسائية الطراز، السروال والقميص، والفتيان الصغار، النحيلون، بشعرهم المصفف وهواتفهم المحمولة المنتشرة في كل مكان. شاهدت كل أولئك الناس، أولئك المسلمين، وعرفت أنهم يؤمنون بالله وأنهم دون شك يقرؤون القرآن نفسه الذي أحاول جاهدة قراءته كل يوم. وبرغم ذلك، لم أشعر بأي صلة نحوهم على الإطلاق، لم أرَ نفسي في عيونهم. ولهذا بقيت بعيدة.

انتهت عزلتي الدينية عندما شاهدت فتاة من الجامعة كانت أقدم مني بسنة. كان اسمها ساندرا، وكنت أحاول جعلها تنتسب إلى الجمعية

الكاريبية ـــ الإفريقية منذ وقت طويل. على أي حال، كانت صديقتها الحميمة هناء عربية، مسلمة، من والد مصري وأم من زنجبار. أتذكر أنها كانت تعترض دائماً على ما تعده الإقصاء والتمييز العنصري الذي تمارسه الجمعية، لهذا تخليت تماماً عن محاولة ضم كلتيهما. لكن، يوماً ما، كنت أسير عبر مطعم الجامعة ووقع بصري على ساندرا، التي كانت تجلس مع مجموعة من الأصدقاء. كانوا جميعاً يبدون متشابهين، عدا تلك النظرة الغريبة على وجه ساندرا والوشاح الذي كانت تلفه حول رأسها. كان واحداً من تلك الحجابات المزركشة المفضلة لدى البنغاليات، لكنها كانت تلفّه حول رأسها بدلاً من تركه ينسدل؛ ليغطي عنقها وصدرها. كانت تبدو مختلفة تماماً. سألت نفسي: ما الذي فعلته؟ كنت مهتمة جداً بذلك، حتى إنني لم أستطع مقاومة الرغبة الذهاب إليها وسؤالها حول مظهرها الجديد. أخبرتني عندها بأنها نطقت بالشهادة في عطلة نهاية ذلك الأسبوع، لقد نطقت بشهادة الإيمان الإسلامي:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

كانت مسلمة آنذاك. شعرت الصدمة والحسد في الوقت نفسه، كانت تبدو سعيدة جداً، كما لو أنها أدركت أنها فعلت شيئاً مهماً وذا معنى، وأن ما قامت به هو الصواب. لقد خطت خطوة شجاعة، خطوة كنت خائفة جداً من الإقدام عليها.

تمالكت نفسي لأقول: «حسناً، أنتِ أكثر شجاعة مني». ثم أخبرتها عن خطواتي المترددة نحو الإسلام وعن تحفظاتي. سألتني في ذلك الوقت ما إذا كنت أرغب في المجيء إلى غرفتها في المدينة الجامعية، وتعليمها كيفية

ربط غطاء الرأس؟ كنت سعيدة لقبول ذلك. في اليوم اللاحق، ذهبت مع بعض الأشياء، بينها قطعة قماش ذهبية جميلة مقلّمة بالأحمر من مصر، قطعة من النسيج الأسود السميك الممتازة لوضع «حجاب» ثابت وقطعة من القماش الشفاف الأزرق الداكن. وفي تلك الليلة، فيما كنا نحاول القيام بذلك، وبين عقد الحجاب والقيام بعدة محاولات فاشلة، بدأت عرى الصداقة تتوثق بيننا، صداقة كانت ستغير حياتي إلى الأبد.

فجأة، كان لدي شخص يشاركني اهتمامي بالإسلام، أناقشه وأتجادل معه في تفاصيل الإيمان، وقد استسغت ذلك. وفيما بدأ اهتمامي بكل الأمور الإسلامية يزداد، بدأ شغفي بـ«قضايا السود» يتضاءل. لم نكن نناقش قضايا جدّية حقاً في اجتماعات الجمعية الكاريبية ـ الإفريقية، وأصابني الإحباط خاصةً من الطريقة المتكررة التي نناقش بها الموضوعات نفسها، سنة بعد أخرى. وفيما استمرت النقاشات القديمة نفسها حول الهوية الإفريقية مقارنة بالكاريبية، ومخاطر العلاقات بين السود والبيض، والأغاني المناهضة للنساء وتلك التي تحض على العنف في رفع حرارة اجتماعاتنا، بدأ قلبي يشعر بالاستياء بشكل غريب. بدا كل ذلك سطحياً جداً، ولا معنى له، هل كانت تلك حقاً أهم القضايا التي تواجهنا بصفتنا بشراً؟ قادني اهتمامي المتزايد بالإسلام إلى رؤية وجهة نظر مختلفة تماماً عن العالم، وإلى فهم جديد لهدف وجود البشر، ووجدت من الصعوبة بمكان أن أتجاهل كل ما كنت أعرفه آنذاك. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي عندما نظمت الجمعية عرضاً للفيلم الجامايكي ملكة الرقص ضمن أمسية ثقافية.

شعرت عندما جلست في القاعة المظلمة، أستمع إلى موسيقى الراغا

تصدح من حولي، وأنظر إلى الأجساد التي تتلوى على خشبة المسرح، والسيقان المنفرجة، المكسوة «بالكاد» والأحذية التي تصل إلى الفخذين، بأنني بعيدة جداً، ومنعزلة تماماً عما يجري. فكّرت في قرارة نفسي بأنني لا أريد الاستمرار على المنوال نفسه، وأنني لم أعد أنتمي إلى ذلك المكان.

لهذا نهضت، غادرت القاعة وذهبت إلى مصلى الطلاب في الجانب الآخر من الحرم الجامعي. كنت بحاجة للوجود مع أشخاص آخرين يكونون على الموجة نفسها معي. كنت بحاجة إلى صحبة مفيدة. كنت بحاجة إلى العمق والمعنى. كنت بحاجة إلى غذاء الروح! أدركت وقتها أنني لم أعد أرتاح تماماً لشخصيتي القديمة وأن قلبي يتحول، شيئاً فشيئاً، نحو الإسلام.

لكن، برغم كل اشتياق قلبي، كانت هناك أمور ينبغي أخذها في الحسبان. وأيديولوجيات وسياسات. كيف يمكنني، وأنا المرأة الإفريقية السوداء (كما كنت أرى نفسي في ذلك الوقت، دون أن أمانع كوني من أصول مختلطة!) أن أعتنق الإسلام؟ مما كنت أراه آنذاك، كان الإسلام ديناً للآسيويين والعرب! بالمحصلة، كان أولئك هم المسلمين الوحيدين الذين سبق ورأيتهم من قبل. فشلت في تخيل قدرتي على التوافق مع طريقة الحياة تلك دون أن أخسر شعوري بالهوية. وملأتني فكرة اعتناق دين قد يبعدني عن عائلتي، وأصدقائي وتقاليد أسلافي بالرعب.

كانت صديقتي الجديدة، ساندرا، صبورة للغاية معي عندما كنت أثير تلك الاعتراضات. أعتقد أن جزءاً منها كان يرى الخلفية التي جئت منها، لكن جزءاً أكبر منها كان يتساءل عن سبب تشبثي الشديد بفكرة «الهوية

الإفريقية». كان الأمر بالنسبة لها بسيطاً: إذا كان الإسلام هو الحقيقة، فكل تلك الأشياء الأخرى ثانوية، لهذا لماذا ندعها تعترض طريق اعتناقنا ما نعرف أنه الحق؟

لكن كان لدي المزيد من الأسئلة لها. أتذكر بكل وضوح أنني صرخت يوماً ما: «ماذا إن وهبت حياتي لله وفعل بها شيئاً لا أريده؟». بالمحصلة، كان لدي خطط: العمل الممتاز، المال، الزفاف الكبير في الديار، الأطفال بسترات مقلّمة وضفائر مجدولة، كنت وضعت كل ذلك بالحسبان! لكن إذا اعتنقت الإسلام، كنت أعرف أن ذلك كله سيتغير. هل كنت مستعدة للتخلي عن طموحاتي وخططي للمستقبل؟ لا، لم أكن مستعدة لذلك التغيير، لست مستعدة للتخلي عن مستقبل مخطط بعناية ومحدد سلفاً بالماضي الذي عشته. كنت مترددة نتيجة الخوف من المجهول، الخوف من عدم اليقين، الخوف من الإذعان.

بحلول ذلك الوقت بدأت العمل موظفة بديلة في شركة أحذية كبيرة في لندن. التقيت هناك امرأة تنحدر من جزر الهند الغربية، وسررت عندما رأيت وجهاً أسود آخر في المكتب، ولهذا كنت ودودة معها. اكتشفت أنها متواضعة ولطيفة جداً، وتأثرت تماماً عندما أخبرتني أنها أضافت «إكس» بعد اسمها بدلاً من اسم العائلة التي لم تعرفها أبداً. في الغرب، يحمل كل شخص أسود كان أسلافه أرقاء اسماً أوروبياً، هو اسم مالك أسلافهم، أو سيد الرقيق. تغيرت أسماؤهم الإفريقية الأصلية الآن، التي لم تعد معروفة على الأغلب. سرعان ما اكتشفت أن عادة استبدال اسم عائلة الرقيق بحرف «إكس» هي ما يفعله مناصرو ما يدعى أمة الإسلام، تماماً كما فعل رئيسها ذو الشخصية الجذابة مالكوم إكس من قبل. لهذا عندما

أخبرتني مونيكا أنها تذهب بانتظام إلى المبنى الخاص بأمة الإسلام في شيفردز بوش ودعتني لمرافقتها، كنت متلهفة للذهاب واختبار ذلك بنفسي. ربما كان ذلك ما أنتمي إليه «نسخة سوداء» من الإسلام؟ لهذا، في أمسية اللقاء اللاحق، ذهبنا معاً وكانت تلك مواجهتي الأولى مع أمة الإسلام المثيرة للخلاف.

وصلنا إلى قاعة الاجتماع. كان حراس أمة الإسلام، طوال القامة عريضي المناكب ببذلاتهم وربطات أعناقهم الأنيقة على شكل فراشات، هناك لاستقبالنا. ضمن جوقة من كلمات الترحيب مثل: «السلام عليكم يا أخواتي السود»، «السلام عليكم يا ملكاتي السود»، قادونا إلى مقصورة في أعلى السلالم حيث تم تفتيشنا، وكانت تلك عادة متبعة نوعاً ما في اجتماعات أمة الإسلام. كانت المرأة في المقصورة ترتدي ما بدا أنه لباس رسمي: فستان أزرق داكن وغطاء على رأسها، يشبه ما ترتديه الراهبات إلى حد بعيد، والذي يغطي شعرها وينسدل خلف أذنيها حتى ظهرها. قامت بتفتيشنا، وأتذكر أن كفاءتها وجدّيتها أعجبتني، وهو شيء نادراً ما وجدته في منظمات السود التي عرفتها. عندما دخلنا قاعة الاجتماع، كانت النساء يجلسن على صفوف المقاعد الأقرب إلى المدخل والرجال على صفوف المقاعد في الطرف الآخر من الغرفة. كان هناك ممر ضيق يفصل بينهم. كان الجميع ينظرون نحو المنصة، حيث يقف أعضاء جدد في «فاكهة الإسلام»، الإطار التنظيمي لكوادر أمة الإسلام، وقد باعدوا بين أقدامهم، ينظرون دون أي انفعال على الفراغ، تماماً كما فعل غيرهم في الستينيات في عهد إلياس محمد. كان الرجال الآخرون يرتدون بذلات رسمية جميعاً، ويضع الكثيرون منهم ربطات عنق على شكل فراشة، وكانت

النساء يرتدين أغطية رأس شبيهة تماماً بذلك الذي تضعه أول امرأة قابلناها. جلست الزائرات في الصفوف الخلفية، يضعن أغطية الرأس من أجل تلك المناسبة.

بدأ الاجتماع بتحية: «السلام عليكم» وتلاوة أول سورة من القرآن الكريم، الفاتحة. ما أعقب ذلك كان مزيجاً من الوعظ التبشيري (الذي يشتهر به متحدثو أمة الإسلام)، الحكايات الشخصية وعرضاً تقدم به أطفال مدرسة أمة الإسلام. أثار الاجتماع وما تضمنه مشاعر قوية فينا جميعاً، خاصةً أولئك المهتمين بـ«قضايا السود» في الاجتماع. ذهبت ثانيةً بعد بضعة أسابيع، واصطحبت معي زميلتي في السكن عفوة، وزميلتي نيشل. لم تفلح الأفكار العنصرية التي أطلقها المتحدثون في إثارة اهتمام نيشل على الإطلاق، كما أنها لم تؤثر بي أو بعفوة كثيراً. لكن فقط عندما ذهبت إلى الاجتماع الثالث مع صديق مسلم، حتى بدأت الشكوك تراودني فيما إذا كانت «أمة الإسلام» تناسبني حقاً. في البداية، لم أكن مقتنعة بفرضيتهم القائلة: إن كل الحضارات في العالم قامت على عاتق «الرجل الأسود الآسيوي». وجدت من السخف أن تقوم حركة تدّعي العمل على تعزيز مكانة السود باختيار بذلات رسمية وربطات عنق على شكل فراشة لباساً لأفرادها. كان الأمر الآخر الذي لا يُصدّق هو الاستعمال المتكرر لاسم «محمد» ـ اسم عربي بامتياز ـ والادعاء في الوقت نفسه بأنه لم يكن إفريقياً أو كاريبياً، وإنما من أصل «آسيوي». في محطة القطارات، قال صديقنا المسلم: «ليس ذلك هو الإسلام الحقيقي». وبرغم أنني لم أكن أعرف الكثير في ذلك الوقت، إلا أنني أدركت أنه على حق. ومقارنة بمبادئ أمة الإسلام، كان الإسلام «الحقيقي» يبدو متناسقاً، متوازناً ومنفتحاً.

بدلاً من التركيز على العلاقة بين الإنسان الأسود و «الشياطين البيض»، مكانة السود والمشكلات الاجتماعية الأخرى التي تواجه مجتمعات السود، يشدد الإسلام على العلاقة بين كل البشر وخالقهم، الإيمان، الأخلاق والعبادة. بدت هاتان الطريقتان في العيش والاعتقاد متباعدتين تماماً. ولم يكن بحثي قد انتهى بعد.

لم يفارقني الشعور بأنني قد وصلت إلى نقطة تحول في حياتي. فيما شعرت، من ناحية، أنني لا أستطيع انتقاء واختيار جوانب الإسلام التي تناسب نظرتي للعالم؛ عرفت، من ناحية أخرى، أنني لا أستطيع العودة إلى أسلوب حياتي السابق. كان الوقت قد حان بالنسبة لي لأتخذ قراراً. وقالت لي ساندرا، التي أصبحت إحدى صديقاتي المقرّبات بحلول ذلك الوقت: إنه ينبغي علي اتخاذ قرار أو أنني سأخاطر بالموت كافرة؛ لأنني لست مسلمة. كنت أتعذب، لكن الأعياد النصرانية كانت على الأبواب، وكنت استلمت راتبي من المتجر الذي عملت فيه بدوام جزئي. ماذا عساي أفعل؟ هل أذهب لقضاء عيد الميلاد مع عائلتي التي كانت في الولايات المتحدة؟ أو هل أذهب إلى مكان آخر يساعدني على فهم ما ينبغي عليّ فعله بقية حياتي؟ اخترت الخيار الأخير. قررت الذهاب إلى إفريقية المسلمة، إلى غينيا، أرض الحياة المفعمة بالحيوية كما تخيلتها في ذهني بعد قراءة كتاب كامارا لين، لو إنفانت نوار L'Enfant Noir. اخترت غينيا أيضاً؛ لأنني عرفت أن غالبية سكانها مسلمون؛ ولأنني التقيت أيضاً، خلال رحلتي إلى مصر، مدير الخدمات البريدية الغيني الذي أثار هو وقومه إعجابي بإيمانهم الثابت وشعورهم القوي بالهوية. كان ذلك الرجل حلقة اتصالي فيما كنت أقوم بالاستعدادات لرحلتي.

كان كل أصدقائي خائفين. بالنسبة لهم، كانت الفكرة بمجملها جنونية: لم أكن أعرف مضيفي جيداً، ولم يسبق لي أن زرت البلد، وسوف أسافر وحدي دون وجود أحد يعتني بي. كانت اعتراضاتهم قوية جداً إلى درجة أنني كنت على وشك إلغاء كل شيء تقريباً، لكن حدثت بضعة أمور جعلتني أؤمن بأنه مقدّر لي القيام بتلك الرحلة. أول شيء كان التعرف مصادفة على مجموعة من النساء النيجيريات المسلمات في أثناء عملي في سوق البيع. عرفت فوراً أنهن نيجيريات؛ لأنهن كن يرتدين ملابس تقليدية (بوبو) وهي تلك الأثواب الإفريقية الفضفاضة المعروفة أيضاً باسم القفطان. لكن بدلاً من غطاء الرأس الشائع، كن يضعن على رؤوسهن الحجابات المزركشة المفضلة نفسها لدى الشابات الآسيويات في منطقتي. أثار ذلك فضولي، وجرياً على عادتي في تلك الأيام، ذهبت إليهن مباشرة وقلت: «السلام عليكم». أجبن جميعهن بابتسامات مشرقة: «وعليكم السلام». تابعت الحديث وسألتهن: من أين جئن وماذا يفعلن؟ قالت لي إحداهن، صاحبة الابتسامة الأكثر إشراقاً: إنهن من لاغوس وجئن إلى لندن في إجازة. اكتشفت لاحقاً أنها تمتلك وكالة سفر في وطنها نيجيريا. خلال سياق حديثنا، تبين أن لديها زميلة تدير وكالة سفر في كوناكري، عاصمة غينيا! عندما قلت لها: إنني أخطط للقيام برحلة لكني لا أعرف أشخاصاً آخرين هناك، أصرّت أن آخذ بطاقتها واسم السيدة في كوناكري، وأن أبحث عنها حالما أصل إلى البلد. جعل ذلك قلبي ينشرح سروراً، هل كانت تلك إشارة على حتمية ذهابي بالمحصلة؟

ثم، في طريقي إلى المنزل على متن قطار الأنفاق، التقيت امرأة منحتني - لسبب ما - الشعور بأنها تؤمن بما أبحث عنه. شعرت أنني مرغمة على الحديث إليها.

سألتها بعد التعريف بنفسي: «هل أنتِ مسلمة؟»، وردت: «نعم». اكتشفت أنها من سيراليون، لكني أعتقد أن والدها كان من غينيا. كان الأمر واضحاً للغاية، كما لو أن جرسين يقرعان في رأسي، يشيران إلى أنني أمتلك الجواب الصحيح. برغم أن ذلك كان يبدو عملاً متهوراً، إلا أنني حزمت أمري عندها وقررت الذهاب إلى غينيا. أتذكر أنني قلت لإحدى صديقاتي في ذلك الوقت: «سأذهب وإذا مت هناك، أعرف أنها ستكون مشيئة الله».

هكذا، عندما حصلت على راتبي الشهري الذي يتضمن أجور العمل الإضافي وسحبت مبلغاً أكثر من رصيدي المصرفي، اشتريت تذكرتي، وحزمت حقائبي وودّعت شقيقي وشقيقتي اللذين كانا يسافران عبر لندن. ثم صعدت الطائرة المتجهة إلى باريس. هناك، كان علي اللحاق برحلة إلى داكار في السنغال، ومن هناك، اتجهت إلى كوناكري. كان يغمرني شعور غريب طوال الرحلة. شعرت أنني أسبح في موجات القدر. كنت صافية الذهن وغير خائفة، برغم أنني كنت قلقة من الخطر المحتمل. ربما كان مدير البريد يكذب طوال الوقت، وقد لا يكون هناك زوجة وأطفال، وربما يكون الأمر كله حيلة لاستدراجي إلى هناك واستغلالي. لكن ذهني لم يكن مشغولاً بمثل تلك الأفكار. لم يكن لدي هواجس، وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى قاعة العبور في باريس، كنت أعرف أنني أريد أن أكون مسلمة. كنت أريد أن أكون مثل أولئك الناس من حولي الذين يتمتعون بثقة كبيرة بالنفس ويبدون قانعين باعتناقهم الإسلام. هذا اقتباس من دفتر المذكرات الذي احتفظت به عندما كنت هناك:

13/12: انتابتني مشاعر قوية لدى رؤيتي للمسلمين السنغاليين أول مرة ـ إنهم يبدون مثل قومي! ارتعش صدري وامتلأت عيناي بالدموع، الحمد لله! ... الرجال يتجادلون بشأن موضوع ما الآن، هل يتكلمون العربية؟ خواتم فضية في كل مكان، ومدرب يرتدي ملابس أديداس ينظر من خلف رجل عجوز. الرجل العجوز يرتدي بوبو بنيّاً ووشاحاً من قماش مشمّع (يمنع نفاذ الماء) على رأسه!

أعجبني كثيراً منظر هؤلاء المسلمين المختلفين تماماً عن أولئك الذين قابلتهم في إنكلترا. كنت ما أزال مشبعة بأفكار القومية السوداء، ولهذا كان أولئك المسلمون يروقون لهويتي الإفريقية وشعوري بالكبرياء؛ لأنني سوداء. كانوا فخورين لأنهم أفارقة، بمظهرهم، وعاداتهم وملابسهم، وهي ميزة نادرة تماماً في الكثير من بقاع جنوب القارة الإفريقية. هناك، تظهر تركة الاستعمار البريطاني بطريقة يرى فيها الكثير من الناس الوقار والهيبة بأن يكونوا بريطانيين. في تناقض صارخ، أعجبني ما عددته ثقة المسلمين في غرب إفريقية «الفرنسية».

بعد توقف قصير في داكار، طرت إلى كوناكري، ووجدت نفسي بأمان وعافية في منزل مدير مكتب البريد مع زوجته، سيدة، وابنيه الصغيرين. وكانت تلك بداية أربعة أسابيع لا يمكن نسيانها. في ذلك الوقت، وفي حرّ كوناكري القائظ، اعتدت ارتداء غطاء الرأس مع قفطان ـ بوبو. وجدتها فضفاضة ومريحة؛ وبرغم أنها جميلة جداً، إلا أنها كانت تخفي شكل جسدي وقد أعجبني ذلك. لم أكن أشعر بالحر، وأمرٌ دون أن يلاحظني أحد تقريباً بين السكان المحليين. كنت أكره ارتداء بعض الملابس الغربية التي أحضرتها معي، وأتلهف دائماً للعودة إلى الراحة والطمأنينة التي

توفرهما لي طيّات القماش الفضفاض. على أي حال، لم يكن الجميع يشعرون بذلك. لم تكن مضيفتي تغطي نفسها على الطريقة الإسلامية بتاتاً، وكان هناك أوقات حاولت فيها مع نساء أخريات إقناعي بالتخلي عن بوبو «العجائز» لصالح الجينز الذي يمكن شراؤه من السوق. غني عن القول: إن الفكرة أخافتني وإنني رفضت كل مرة. أولاً، لم أكن مهتمة بالعودة إلى ارتداء الجينز، وثانياً، لم أكن لأتجول «مرتدية جينزاً من سوق غير غيني». بالمحصلة، كان علي المحافظة على انطباع ذهني معين! ازدادت الرغبة في «حماية نفسي» مع البوبو نتيجة حادثة وقعت معي وتتعلق بواحد من أغنى الرجال في غينيا في ذلك الوقت. منذ أعلنت رغبتي بأن أصبح مسلمة، كان هناك قضية واحدة تشغل بال الجميع: من سأتزوج؟ لأكون صادقة، لم يكن الزواج في مقدمة اهتماماتي حتى ذلك الوقت، لكن هناك، وفجأة، أخذت الفكرة تشغل ساعات يقظتي.

كان لدى الجميع شقيق، عم أو ابن عم قد يصبح زوجاً رائعاً لي، دفعني ذلك إلى الجنون بالتأكيد! إحدى الخيارات المحتملة كانت ذلك الرجل الفاحش الثراء الذي يتمتع بنفوذ كبير في كوناكري، ويبلغ من العمر ضعف عمري تقريباً. فكرت عائلة مضيفي أنه سيكون قريناً رائعاً لي وشجّعته على المجيء إلى المنزل وسرد أحاديثه السخيفة أمامي. دعانا في إحدى الأمسيات لزيارة مقر فريقه لكرة القدم، الذي كان يقع في أحد فنادق الخمس نجوم في المدينة. عندما شاهدت سيدة أنني سأرتدي بوبو، اختلقت مشكلة وأصرّت على قيامي بارتداء شيء يجعلني أبدو أصغر عمراً، أكثر أناقة وأقل حجماً. استسلمت لها بكل غباء. قضيت بعدها واحدة من أكثر الأمسيات إزعاجاً في حياتي: تجاهلني الرجال الذين تحدثوا عن كرة

القدم، وكان واضحاً أنني محط إعجاب لكن دون أن أتدخل في الحديث. الغريب تماماً بالنسبة لي أنه غالباً ما يتوقع الرجال من النساء قبول هذا الدور. يجب أن يكنّ مع رجل يعتني بهن ويكيل لهن المديح والإطراء لكن لا أن يتحدث معهن أو يعبّر عن أي فكرة عقلانية بحضورهن. الغريب أيضاً كيف يستمع الرجل إلى تعليقات الإعجاب بـ «امرأته» من أصدقائه الذين يحسدونه ويشتهونها سراً. يجعله ذلك يشعر بأنه رجل، فحل؛ كما لو أن مظهرها الحسن يثبت جدارته وذوقه الرفيع.

لم أكن مرتاحة لذلك أبداً، برغم أنني مثل الكثير من الشابات الحسّاسات اللواتي يسعين إلى الحصول على استحسان الآخرين، غالباً ما كان ذلك جزءاً من السلوك في حياتي. في تلك الأمسية الحارة في كوناكري، شعرت بالإذلال وغضبت من نفسي؛ لأنني استسلمت ولم أتمسك بما أومن به. تركت الرجال فجأة على نحوٍ فظ وذهبت إلى الشاطئ، على حافة حديقة الفندق، حيث استطعت تذوق الرذاذ المالح من الأمواج التي تتكسر على الصخور. كنت على الأقل ما أزال أضع غطاء الرأس. كان ذلك غريباً، لكن برغم أن غطاء الرأس ليس شكلاً إسلامياً بحتاً، إلا أنه أصبح هاجسي في تلك الأيام. طالما كنت أضعه، كنت أشعر بأنني أستطيع الحفاظ على كرامتي ومبادئي. وعرفت أنني إذا خسرت ذلك، فسأكون قد فقدت أكثر من مجرد الغطاء على رأسي، سأكون قد فقدت الكفاح من أجل هويتي الجديدة. عقدت العزم في تلك الأمسية ألا أسمح لأحد بدفعي إلى مثل ذلك الوضع المثير للشبهات مجدداً. كانت أيام شغفي بإثارة اهتمام الرجال قد انتهت.

انتشرت الأنباء عن عنادي في نطاق عائلتي وأصدقائي، وتعاطفوا معي وأطلقوا عليّ لقب «الحاجة»، تلك التي تحج إلى مكة. كان سبب ذلك أنه

من الشائع للناس في العالم الإسلامي عيش حياة غير إسلامية أبداً حتى يبلغوا منتصف العمر ويقوموا بأداء فريضة الحج، وعلى أن مكافأة الحج هي غفران كل ذنوب المرء، يعود الكثيرون من مكة بذهنٍ صافٍ، ومستعدين لعيش حياة إسلامية بعد التخلي عن كل رغبات الشباب الجامحة. لهذا، ولأنني كنت أتحاشى ارتداء الملابس الضيقة أو تلك التي تكشف الجسد، والأصدقاء الحميمين، وكشف شعري، كسبت لنفسي ذلك اللقب.

كنت في غينيا محاطة مجدداً بأشكال العبادة المختلفة، الصلاة التي تقام عند الفجر عندما لا يزال الضباب يلف الأرض، صوت المؤذن، شعائر صلاة الجمعة في المسجد. خمس مرات في اليوم، كنت أتوضأ، أضع الوشاح الذي يغطي رأسي، عنقي وصدري، أمد سجادة الصلاة، أواجه القبلة، الكعبة في مكة، وأصلّي، أصبحت الصلوات اليومية الخمس النغم الطبيعي في حياتي.

كان يعني لي الكثير أن تلك العبادات أدّاها النبي محمد ﷺ وأصحابه وكل المسلمين في جميع أنحاء العالم منذ ذلك الوقت. لاحقاً، كانت هناك أوقات أخذت أفكر فيها بالأمة الإسلامية، وأشعر بالفخر؛ لأنني جزء من ذلك المجتمع الرائع.

كل جمعة، كنت أذهب إلى أحد المساجد مع والدة مضيفي، الحاجة، وهي امرأة رائعة تمتلك حس فكاهة وشخصية مذهلة. كنا نضع قطعة كبيرة من القماش فوق أغطية الرأس وعلى أعناقنا وفوق أكتافنا، بتلك الطريقة، كنا نجهّز أنفسنا للصلاة. وفي المرة الأولى التي صلّيت فيها بالطريقة التي صلّى بها النبي محمد ﷺ قبل ما يزيد عن 1400 سنة،

حاكيت ببساطة ما كان يفعله الذين حولي. عندما رفعوا أيديهم، رفعت يديّ: «الله أكبر». عندما انحنوا إلى الأمام من الخصر في الركوع، فعلت الشيء نفسه: «سبحان ربي العظيم». عندما سجدوا، وجوههم وأكفّهم على الأرض، سجدت معهم: «سبحان ربي الأعلى».

هل هناك وضع أكثر رمزية في علاقة الإنسان بربه من السجود؟ يحني الإنسان، الذي يسير متباهياً وفخوراً للغاية بنفسه، جسده بإرادته، حتى يضع وجهه على الأرض تذللاً أمام خالقه. وجدت هذه الوضعية رمزية للغاية. في تلك اللحظة، في أثناء السجود، شعرت بأنني أقرب ما يكون إلى الله، الذي يلهج لساني باسمه بسهولة الآن. كنت أستطيع في ذلك الوقت التكلم معه بسهولة، أن أتضرع إليه، أفضي إليه بمكنونات نفسي وأذرف الدموع بين يديه. لقد تعلمت حب الله في أثناء السجود.

في أول أيام الجمعة، عندما عدنا إلى منزل الحاجة، علّمني أحد الرجال كيف أتلو السورة الأولى في القرآن:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة: 1 - 7]».

استساغ لساني الكلمات الغريبة، وواظبت عليها، وتعلمت تلك السورة واثنتين أخريين سماعياً. ابتاع لي مضيفي كتيباً من بائع على جانب الطريق يشرح الحركات والقراءات المطلوبة في أثناء الصلاة، ومنحوني سجادة صلاة من المخمل الأخضر؛ لأستعملها في غرفتي. علّموني أيضاً كيفية الوضوء، وهو طقس الطهارة الذي يقوم به المسلمون قبل تأدية الصلاة.

في الحمام المكسو بالسيراميك الأزرق، نويت الوضوء ثم غسلت يديّ ثلاث مرات، وسال الماء البارد من بين أصابعي وفوق معصميّ. وبيدي اليمنى، حملت الماء إلى وجهي وقمت بالمضمضة والاستنشاق في الوقت نفسه، وأفرغت فمي وأنفي باستعمال اليد اليسرى. فعلت ذلك ثلاث مرات. ثم تابعت فغسلت وجهي ثلاث مرات. تدفق الماء على يدي، وعندما رفعت ذراعي، تدفق الماء عليه فيما كنت أغسلهما، اليمنى أولاً ثم اليسرى، ثلاث مرات. مسحت شعري بالماء، إلى الخلف، ثم إلى الأمام، ثم مسحت أذنيّ بأصابعي وإبهامي. أخيراً، سكبت الماء من الإبريق على قدميّ فيما كنت أغسلهما ثلاث مرات. اكتشفت أنه لا يوجد أشياء كثيرة منعشة مثل الوضوء، وخاصةً خلال الأيام الرطبة في غينيا. كان يجعلني أشعر بالنظافة والانتعاش، ومستعدة للصلاة في الظل داخل غرفتي، وكانت الظلال من الأشجار خارج نافذتي ترسم أشكالاً على سجادة صلاتي الخضراء والأرضية الفخّارية.

مرت الأيام بسرعة في كوناكري، وكانت مليئة برحلات إلى السوق، الصلاة، شراء بوبو جديد والأحاديث ـ بالفرنسية ـ مع الجيران والأشخاص الآخرين الذين التقيناهم. تعلمت أيضاً بضع عبارات باللغة المحلية، سوسو، وغالباً ما كنت أستعملها مما كان يثير سرور مضيفي. ثم حل علينا شهر رمضان فجأة، واستطعت أن أشعر بالإثارة في الجو.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: 185).

بالنسبة لي لا يوجد شيء مثل الوجود في بلد إسلامي في أثناء رمضان. لا يوجد شيء في تجربة المسلمين في الغرب يضاهي ذلك سواء من حيث الطقوس أو الشعور بالتضامن، ولا شيء يشبهه أبداً. لغاية يومنا هذا، أتذكر حسن الصحبة التي انبثقت عن معرفة أن الجميع (حسناً، الجميع تقريباً!) كان ممتنعاً عن الطعام، والشراب والعلاقات الجنسية من الفجر حتى المغيب. ومثل معظم بقاع العالم الإسلامي، كنا نأكل جيداً بعد غياب الشمس: أرزاً معطّراً وسمكاً كثير البهارات، خبزاً حلواً طازجاً من أفضل فرن في البلدة، بيساباً حلواً لاذع الطعم، مصنوعاً من أوراق الحمّاض (حبق خُراساني) وماء الزهر، الكوسكوس الساخن والدجاج المشوي واختصاص سيدة، سلطة الذرة الحلوة. بعد أن نأكل كفايتنا، كنا نتوضأ ونسير فوق التراب الرطب آنذاك إلى المسجد على ناصية الطريق حيث ستقام صلاة العشاء. كانت النساء، اللواتي يرتدين البوبو بألوان متعددة ويلقين بأوشحتهن شبه الشفافة فوق أكتافهن، يملأن دائماً القسم العلوي من المسجد وقت الصلاة، خاصةً عندما يحين وقت صلاة التراويح. تلك هي الصلوات الطويلة التي تُقام في كل مسجد تقريباً خلال رمضان، والتي يُتلى فيها عادة القرآن كاملاً في أثناء تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً في الشهر.

هكذا، يوماً بعد آخر، أخذت أشعر بالارتياح بوصفي مسلمة بين هؤلاء القوم الذين كانوا غرباء عني قبل شهر مضى. عاملني أولئك الذين استضافوني كما لو أنني ابنتهم، وانتابني شعور قوي بالانتماء بينهم. كنت واحدة من العائلة، وحاضرة في زياراتها، رحلات التسوق وحفلات الزفاف، ولم يتركوني وحيدة على الإطلاق. وغني عن القول: إنني لم

أشعر بأي توتر، بالتأكيد كان هناك بعض المناوشات الشخصية، وقد شهدت أشياء كثيرة كنت أعرف أنها لا تمت للإسلام بصلة وحرام، حتى مع معرفتي المحدودة بالدين. لكني رأيت أيضاً أن الإسلام شيء يعيشه الناس، وأنه ليس مجرد فكرة مثالية. وكنت أعرف آنذاك أنني أستطيع عيشه أيضاً. (السؤال الوحيد حينها كان: بمن سأتزوج؟!). لكن ينبغي أن أذكر هنا أنه برغم الصلاة، والصيام وتغطية الرأس، إلا أنني لم أكن قد نطقت بالشهادة، لم أكن مسلمة بعد.

عدت من غرب إفريقية امرأة أخرى. لم يكن لدي شكوك بأن الإسلام يناسبني. كنت قد بدأت عملية الاستسلام، أو الخضوع. في يوم كئيب في لندن، بعد بضعة أسابيع من عودتي، سرت مع صديقتي ساندرا إلى المسجد الكبير في منتزه ريجنت. وهناك، بعد شهور من البحث والسؤال، قبلت أخيراً ما كان موجوداً في قلبي منذ وقت طويل: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

في الحقيقة، كنت آخر شخص يُتَوقّع منه أن يعتنق الإسلام. جئت من خلفية غير متدينة على الإطلاق؛ وكنت شابة، وأعيش حياة مرحة وصاخبة. كنت أتابع تعليمي، وأخطط للمستقبل وناشطة سياسياً. كنت شغوفة بما أؤمن به. ثم جاء الإسلام وقلب عالمي رأساً على عقب. جعلني أطرح أسئلة، وأطالب بالأجوبة وأتعلم قبول المسلّمات. لم يكن هناك سبيل لابتعادي عن الإسلام وإيجاد السكينة في نفسي. بالنسبة لي، كانت الحقيقة بسيطة للغاية، ولهذا قبلت بها.